جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للقبائل المغربية
ايت عطا نموذجًا

منير روكي

باحث دكتوراه- كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحسن الثاني (المحمدية)
المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

منير روكي، جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للقبائل المغربية ايت عطا نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٦٩ – ٧٥.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

تعتبر قبيلة ايت عطا من أهم التكتلات القبلية الموجودة في جنوب الشرقي المغرب، ساهمت الظروف الطبيعية الصعبة وقساوة المناخ في بلورة معالمها البشرية وبنياتها الاجتماعية، الأمر الذي طبع سيرورتها التاريخية بخصائص متعددة تتلاءم والإطار الطبيعي للمنطقة. وكما هو الأمر بالنسبة لكافة القبائل المغربية، تميز المجتمع العطاوي بتراتبيته المبنية على هرمية واضحة نظرًا لكونه يتشكل من عناصر مختلفة ذات مواقع اجتماعية متباينة (العطاويون الأصل، الشرفاء والصالحون، الحراطين، اليهود...) ربطت بينهم علاقات متباينة نظرًا لاختلاف مكانتهم الاجتماعية. وقد اشتغل هؤلاء في قطاعات اقتصادية شتى أهمها الزراعة والرعي، حيث ساعد الموقع الجغرافي لهذه القبيلة في تحديد نوع النشاط وطبيعة، الأمر الذي ساعد في تحديد نمط العيش وطريقة استغلال الأرض التي ارتبط بها السكان إلى أبعد الحدود. كما امتهن أهل القبيلة التجارة سواء الداخلية أو الخارجية، ورغم محدودية دخلها في أغلب الأحيان، فقد شكلت موردًا أساسيًا لعيش السكان، أما الحرف فقد كانت حكرًا على اليهود من سكان القبيلة لاسيما الحلي والمجوهرات البسيطة. أما التنظيم السياسي، فقد ارتبط بالواقع الانقسامي للقبيلة، حيث كانت الاتحادية تنتخب سنويًا ما يسمى بـ "أنحكام" يساعده مجموعة من الأعيان في تسيير شؤون القبيلة، ويرتبط الجميع بالمحكمة العليا الموجودة في "ايغرم أمازدار". بيد أن جميع المؤسسات لم تكن لها صبغة دينية، وإنما ترتبط في الغالب بمجموع الأعراف التي يتم رسمها من قبل كبار القبيلة.

مُقَدِّمَة

يعتبر مفهوم القبيلة من المفاهيم المركزية التي احتلت حيزًا هامًا في كتابات السوسيولوجيين الأجانب نظرًا لاحتلالها موقع القلب النابض للمجتمع المغربي في تاريخه الطويل، ونظرًا لكونها أحد الركائز الأساسية التي شكلت بنية التنظيم الاجتماعي في الأرياف المغربية. وإذا كان المغرب يتميز بتعدد قبائله، فإن أهمها في واحات الجنوب الشرقي تبقى قبيلة ايت عطا التي لعبت أدوار محورية على مر التاريخ. فما هي الخصائص الطبيعية والبشرية لها؟ وما أبرز التطورات التاريخية التي مرت منها؟ وبماذا تتميز الحياة الاقتصادية والاجتماعية لهذه القبائل؟

أولاً: ايت عطا (المجال والتاريخ)

١/١- المجال الطبيعي لقبائل ايت عطا:

يحدد القبطان جورج سبيلمان[١] مجال قبائل ايت عطا في المنطقة الممتدة من المقاطعات الشمالية لدرعة وتافيلالت على طول يتراوح بين (٨٠) و (١٦٠) كلم، كما تمتد في المناطق الجنوبية الشرقية للمغرب الاقصى على مشارف الصحراء الكبرى، ويمثل خط دادس، تودغة، فركلة غريس حدوده الشمالية، بينما تحدد تافيلالت حدوده الشرقية. في حين يستدبر هذا المجال وادي درعة غربًا وفي الجنوب يحدده حاجز صحراوي صعب العبور.[٢] أما

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الشبكة الهيدروغرافية الضيقة نسبيًا فتتكون من ثلاثة أنهار مهمة وهي درعة وزيز وغريس، كما تتميز التضاريس بانتظامها وتمتد على ارتفاع يتراوح ما بين (٨٠٠) و(١٠٠) متر جنوب "باني" بجوارها كثبان رملية. عمومًا يمكن التمييز في المجال المدروس بين أربعة وحدات رئيسية وهي:

- **كتلة صاغرو- أوكنات:** الممتدين على طول (٣٠٠) كلم عرض، و(٤٠) كلم الامتداد الشرقي للأطلس الصغير، إذ يفصلهما عنه وادي درعة. وينتميان إلى نفس المحدب شرق غرب، يشمل كل الزمن الأول من الكمبري إلى الفيزي.
- **جبل باني:** يمتد غرب درعة وينقسم إلى فرعين: الفرع الرئيسي يواصل سيره شرقًا ثم يتجه شمالاً عندما يخترقه واد درعة. أما الفرع الصغير لباني المنفصل عن السلسلة الرئيسية عند زاوية سيدي عبد النبي من منتصف الطريق بين فم زكيد وزاكورة فيتقوس في اتجاه الجنوب الشرقي. ويتيمز السفح الشمالي لباني بشدة انحداره ووعورته، أما السفح الجنوبي فينخفض بمنحدرات خفيفة حتى السهل.
- **سلسلة توغبيت:** تنتمي إلى تضاريس جبل باني وتسير بموازاة الفرع الرئيسي لهذا الأخير. وخارج هذه السلسلة توجد عدة كتل **وهضاب** مثل جبل مداح وكمكم وجبل سدرار، وغالبًا ما تكون الهضاب مجزأة بعمق ومحفورة من طرف عدد كبير من المسيلات والشعاب النشيطة التعرية.[٣]

- **الحمادات:** تنتمي إلى الهضبة الصحراوية الشاسعة، وهي منطقة مسطحة لم تتأثر بالطي منذ نهاية الأزمنة الأولى وأهم هذه الحمادات هي كير وهي أكثر انبساطًا، وحمادة درعة غير أنها أكثر وعورة.

أما فيما يخص الشبكة الهيدروغرافية، فالأنهار تحد ايت عطا من ثلاث جهات: درعة، ودادس، وتودغا، وغريس شمالاً، وزيز شرقًا. ولهذه المجاري المائية كلها طابع صحراوي واضح. تجمع أنهار درعة، وغريس، وزيز بمياهها في الأطلس الكبير الشرقي بواسطة روافدهما واد دادس، وواد تودغا. ورغم كونها طويلة جدًا فلا يبلغ أي واحد منها البحر، كما أن زيز وغريس فيلتقيان جنوب تافيلالت ليختفيان في منطقة نشر الداورة. من ناحية أخرى؛ تتوفر المنطقة على مجاري ومياه باطنية قريبة من السطح على عمق (٢) و(٦) أمتار، يطلق عليها أهالي المنطقة "أجمو"، غير أن هذه المياه غالبًا ما تكون شديدة الملوحة.[٤]

أما المناخ، فيتميز بالجفاف وارتفاع درجة الحرارة التي تصل إلى (٣٥) شتاءً و(٦٢) درجة صيفًا، فضلاً عن هبوب رياح عاتية قادمة من الجنوب والجنوب الغربي وتلحق خسائر فادحة بالفلاحة والمزروعات. أما الأمطار فهي نادرة وإذا ما سقطت فتأتي طوفانية. وهكذا؛ يتضح أن مجال ايت عطا ينتمي إلى الصحراء ويشمل الجهات الرعوية جنوب الأطلس الكبير بما في ذلك مرتفعات الأطلس الصغير. وقد شكل هذا المجال منذ القدم مجالاً للرعي والترحال مع استقرار محدود في الواحات.[٥]

٢/١- الخصائص البشرية:

يميز "جورج سبيلمان" بين تناقضات صارخة على المستوى البشري بين سهوب وواحات ايت عطا، ففي الوقت الذي تعرف فيه الواحات ارتفاعًا في عدد السكان نتيجة تضخم عدد الولادات ومتكونة من ثلاثة عناصر: العربي، الأمازيغي والزنجي، فإن السهوب تسود بها مخيمات الرحل الأمازيغ والعرب.[٦] وتعتبر قبائل ايت عطا الصحراء وايت سدرات نموذجًا حيًا للعنصر الامازيغي، نظرًا لكون ايت عطا تضم (٣٨) ألف نسمة تعيش عشرة آلاف منهم في قلب بلاد أيت عطا، أما الآخرون فيتوزعون بالتفاوت على أراضي غزو بتافيلالت وزيز وغريس وفركلة ودادس في الأطلس الكبير. فضلاً عن ذلك؛ تتكون المنطقة من عنصر ثالث ساهم في الديناميكية الاقتصادية والاجتماعية لايت عطا، يطلق عليهم دراوة، وركاكة، وفيلالة، وأيضًا قبالة وإن كانت هذه التسمية الأخيرة هي الأكثر شمولية، وينقسمون حسب أصولهم إلى طبقتين: الأحرار وهم عرب، أو أمازيغ مستقرين غير منضوين في قبائل ويعيشون في قصور، ثم الحراطين وهم زنوج مستقرين بدورهم ينحدرون في أغلبهم من السودان أو السنغال.[٧] وعلى هذا الأساس يمكن تقدير ساكنة درعة تافيلالت بحوالي (١٥٧) ألف نسمة موزعة على الشكل التالي:

- وادي درعة: ١٠٧,٠٠٠ نسمة.
- تافيلالت: ٤٠,٠٠٠ نسمة
- بلاد عطا بين درعا وتافيلالت: ١٠٠٠ نسمة.

يلاحظ من خلال هذه المعطيات المقدمة من طرف سبيلمان ضعف ساكنة بلاد ايت عطا وإن كان الاختلاف أشد حول أغلبية عنصر على آخر هل العنصر البربري أو العربي، وإن كان الثابت أن التمازج بينهما حصل منذ أقدم العصور.

٣/١- ايت عطا عبر التاريخ:

ترجع البدايات الأولى لحلف ايت عطا إلى القرن الخامس عشر الميلادي على يد الزعيم الروحي "دادا عطا" أحد أقرباء عبد الله بن حساين دفين تامصلوحت المتوفى سنة (١٥٧٦م/ ٩٧٧هـ)، الذي استغل الظروف السياسية التي كان يعيشها المغرب وقتئذ والمتمثلة في ضعف السلطة المركزية وتزايد الضغط البرتغالي على السواحل المغربية، فقام بتوحيد قبائل ايت عطا في محاولة منه الاستيلاء على السهول المجاورة والدفاع عن نفسها من كل ما من شأنه أن يهدد وجودها. وإن كان التساؤل حول دوافع نشأة هذه الإتحادية يبقى موضع شك باعتبار هل كان ذلك راجع للدفاع عن نفسها كما يذهب البعض أم أن الأمر يتعدى ذلك لتحقيق أهداف ومآرب

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

سياسية على اعتبار المكانة التي كان يحتلها عبد الله بن احسين بكونه شريفًا إدريسيًا له سمعة طيبة.[٨]

ومهما يكن من أمر، فالغالب على الظن أن دادا عطا حاول أن يوحد القبائل في المغرب الشرقي تحت اسمه وكون اتحادية ايت عطا التي رسمت بصماتها في التاريخ،[٩] حيث واكبت البدايات الأولى لظهور الدولة العلوية في الجنوب المغربي. وإليه ينسب ايت عطا لذلك فإن أي تصور للبنية الاجتماعية لهذا الحلف، يجب أن ينطلق من إثبات الذين ينحدرون بحسبه من نفس الجد أي ايت عطا.

يذهب دافيد مونتغومري هارت إلى أن هناك خمس روايات تناقلت مسألة انتساب هذا الحلف وتسلط الضوء على نشأته وتأسيسه، وتبقى أهمها تلك المتعلقة بسيرة دادا عطا وحفدته الأربعون، حيث كان لدادا عطا أربعون ولدا تزوجوا كلهم في نفس الوقت، وكان هناك راع من ايت سدرات أيضًا، وخلال الزفاف قام الراعي بملء جعاب بنادق ابنائه الصوانية بالماء، ثم انسل ليقول لرفاقه في القبيلة بان يتبعوه لمحاربة ايت عطا. وهكذا كان قد قتل أبناء دادا لعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم لأن جعاب بنادقهم كانت مملوءة بالماء، وكانوا قد قضوا ليلتين مع زوجاتهم اللواتي أصبحن أرامل غير أنهن حبلن منهن، وبعد انقضاء مدة الحمل وضعن تسع وثلاثون ولدًا وبنتًا واحدة. وظل دادا عطا قيد الحياة إلى أن كبر أحفاده وأصبحوا قادرين على الثأر لأولاده، فخاضوا الحرب ضد ايت سدرات وطاردوهم عن ممر تيزي بغرب الاطلس المتوسط.[١٠]

ورغم الطابع السجالي لهذه الرواية، فالغالب على الظن أن هناك أسبابًا أخرى كانت وراء نشأة اتحادية ايت عطا يمكن إجمالها في الصراع على المجال، لاسيما مع القبائل المجاورة (ايت سدرات نموذجًا). على أن أخبار القبيلة ظلت غائبة لكثرة الوحدات السياسية التي عرفها الجنوب المغربي في النصف الأول من القرن السابع عشر، قبل أن يشتد عود ايت عطا بعد أن استكملت عناصرها وتضخمت أعدادها بمن انحاز إليهم من فلول القبائل الزناتية.[١١]

من ناحية أخرى؛ يذهب مزين[١٢] إلى أن تشكيل الحلف يرجع إلى القرن الخامس عشر كرد فعل لسكان جبل صاغرو والأطلس الكبير الشرقي على تردي مراعيهم، فضلاً عن شكل التأقلم لهؤلاء المنتجعين على التراجع الاقتصادي للقرن الخامس عشر وإلى أزمة التبادل التي ترتبت عنها، بيد أن هذا التحالف لم يعرف نموه الكامل إلا خلال القرن السادس عشر.

انتقل ايت عطا من جبل صاغرو في اتجاه الشمال ثم نحو وسط الأطلس عند منتصف القرن السادس عشر، ولم ينتقلوا من الترحال إلى الانتجاع إلا عندما اكتشفوا مزايا الفلاحة واتخذوا القصور مخازن ودور ذات طوابق، كما تشير الروايات إلى اهتمامهم بتربية المواشي وروابطهم بالأولياء مثل مولاي عبد الله بنحساين وسعيد أحنصال.[١٣] ونظرًا لتزايد خطر القبائل بني معقل الذي أخذ يهدد إمداداتهم الطبيعية من الجنوب وتمر تافيلالت، قام ايت عطا بتقوية عصبيتهم بتوسيع حلفهم العطاوي ليصبح أكثر شَّسُوعًا مع مطلع القرن التاسع عشر على الرغم مما يمكن أن يقال عن الارتباط الكبير لهذه القبائل مع جبل صاغرو الذي شكل على الدوام مجال انتشارها.[١٤]

ويبدو أنه من الصعب تحديد مختلف الأحداث التاريخية التي شهدتها اتحادية ايت عطا منذ تأسيسها نظرًا لضعف المادة المصدرية التاريخية، وإن كانت الرواية الشفوية التي احتفظت بها ذاكرة القبائل وبعض الشذرات النادرة في المصادر المكتوبة، غير أنه يمكن الإقرار أن الظروف التي عرفها المغرب ابتداءً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ألقت بظلالها على المنطقة حيث اتجهت قبائل ايت عطا إلى الاستقرار النهائي في مجالها الحالي والتخلي ولو جزئيًا عن أسلوب التنقل والانتجاع، وتدخل بعد ذلك في مرحلة جديدة من المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي.[١٥]

ثانيًا: الخصائص الاجتماعية والاقتصادية لقبائل ايت عطا

١/٢- مكونات المجتمع العطاوي:

يتميز المجتمع العطاوي بتراتبيته المبنية على هرمية واضحة نظرًا لكونه يتشكل من عناصر بشرية مختلفة ذات مواقع اجتماعية متباينة.[١٦] وعلى هذا الأساس يمكن أن نلاحظ داخل هذه القبائل كتل بشرية يمكن تحديدها كآلاتي:

العطاويون الأصل: والمقصود بهم كافة العناصر البشرية التي شكلت دعامة القبائل العطاوية منذ بداياتها الأولى ولاسيما فئة الامازيغ. ويشير استيتو إلى أنهم هم الذين ينتسبون فعلاً إلى ايت عطا عن طريق النسب، أي مجموع أولئك الذين تربطهم أواصر الدم والقرابة. تحتل هذه الفئة قمة الهرم في المجتمع العطاوي، حيث يسيطرون على نصيب الأسد من الأراضي التي يشتغل فيها العبيد والحراطين. ويتميزون ببشرتهم البيضاء ويتكونون من العرب والامازيغ كما يشكلون أهم المؤسسات السياسية والاجتماعية في مجالهم القبلي، ويسهرون على أهم التقسيمات القبلية من الكانون والأسرة إلى غاية الحلف والاتحادية.[١٧]

فئة الشرفاء والصلحاء: لابد من التذكير بأنها احتلت مكانة متميزة داخل المجتمع العطاوي بحكم الثقة التي كانت تحظى بها داخل القبيلة بكونها تنحدر من السلالة النبوية الشريفة، فضلاً عن دور التحكيم الذي كانت تقوم به بين مختلف الوحدات القبلية العطاوية، كما يمكن التمييز بين الشرفاء الذين ينتمون الى السلالة الادريسية وبين الصلحاء "ايكورام" مثل مولاي عبد الله بن احساين، وسيدي محمد تفروتن، وسيدي يعقوب.[١٨] غير أن هذه الفئة بقيت محايدة فيما يتعلق بصياغة القوانين العرفية لهذه

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

التجمعات القبلية اللهم تدخلها اللافت للنظر في مجال الصلح والوظيفة التحكيمية التي اضطلعت للقيام بها نظرا لهيبتها وبركتها.

الحراطين: هم الفئة الدنيا داخل المجتمع العطاوي، وهو ذوو أصول زنجية ويحملون أسماء المناطق التي يوجدون بها مثل: دراوة (سكان درعة)، الركاكة (سكان الرك)، فيلالة (سكان تافيلالت)، وقبالة (سكان القبلة). ويميز سبيلمان بين صنفين في هذه الفئة: الأحرار وهم من أصل عربي أو أمازيغي ويعيشون أساسًا في القصور، ثم الحراطين الذين يعيشون مستقرين مع الأحرار وينحدرون غالبًا من أفريقيا جنوب الصحراء في إطار الرواج التجاري ويمثلون بعض السلالات الأفريقية، يعانون من الفقر والتهميش والحرمان ويتميزون ببشرتهم السوداء وغالبًا ما كانوا يعملون لدى العطاويين الأصل في حقولهم.

اليهود: شكلوا أقلية داخل المجتمع العطاوي، رغم أنهم احتلوا مكانة اقتصادية متميزة، واستطاعوا مراكمة ثروات مادية هامة بفعل تعاطيهم للتجارة وتضلعهم في مجال الحلي مما جعلهم يحوزون على احترام باقي الفئات الاجتماعية الأخرى.[١٩]

٢/٢- جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لايت عطا:

الزراعة والرعي:

ساهم الموقع الجغرافي لقبائل ايت عطا في تحديد طبيعة نظامها الاقتصادي، فنظرًا لجفاف المناخ وارتفاع درجة الحراة وعدم انتظام التساقطات، اتجه السكان إلى أسلوب الرعي والانتجاع انسجامًا مع خصائص هذا المناخ، فضلاً عن الاعتماد على أودية دادس، تودغة، فركلة، وغريس للاستفادة من العيون المنتشرة بكثرة قصد إقامة نشاط زراعي. ونظرًا لضعف التربة، فقد اتجه الفلاح العطاوي إلى تخصيبها بروث الحيوانات في محاولة منه تشبيعها بالمواد العضوية، مثلما كانت عادته في تقليب الأرض قبل موسم الأمطار حتى تغتسل من ملوحتها.

يتباين استغلال الأرض لدى قبائل ايت عطا حسب القرب أو البعد من مجال السكن، فبينما تندرج الجنان المحيطة بالقصر في زرع بعض الخضروات والفواكه وغيرها، وتندرج باقي المستغلات التي يتم ربطها بالسواقي في إنتاج الحبوب وبعض القطنيات فضلاً عن أنواع من المنتوجات المخصصة لعلف الماشية مثل الفصة، كما تنتشر أشجار النخيل والزيتون. وعمومًا، ظل النشاط الفلاحي بايت عطا، نظرًا لقساوة المناخ من جهة، ولاعتماد أدوات تقليدية من ناحية أخرى، ضعيفًا مما دفع السكان إلى اللجوء إلى أساليب التعاون والشركة، حيث كانت معظم الأسر العطاوية تستثمر أراضيها مباشرةً أو بالتعاون مع الأسر الأخرى (التويزة) الذي ينظم العمل في الأرض أو في الأسواق وغيرها.[٢٠]

وفي الوقت الذي استغلت فيه قبائل ايت عطا ضفاف الأودية للحصول على إنتاج زراعي معاشي يمكنها من تحقيق اكتفائها الذاتي، كان الرعي والإنتاج في المناطق الجبلية والمنبسطات القاحلة النشاط الرئيسي والموازي لهذه القبائل، والواضح أن قلة الغطاء النباتي في مجال ايت عطا أدى إلى ظهور نوعين من أشكال تربية الماشية، إما الترحال والانتجاع أو اعتماد حياة الخيام والتنقل. كما اعتنى الإنسان العطاوي بقطعانه لاستكمال اكتفائه الذاتي، وتوفير حاجاته من المواد الغذائية مثل الألبان والأصواف والجلود، فقد اهتم العطاويون بتربية المواشي لاسيما الأغنام والماعز والإبل التي وجدت ضالتها في المنتجعات خلال فصل الشتاء.

ومادامت البنية العقارية العطاوية قد اتسمت بطغيان الملكية الجماعية، فإن المراعي والمنتجعات شكلت مربط الحصان داخلها. حيث نجد أن عددًا من المناطق تدخل في إطار الملك المشترك الخاص بفخدات دون أخرى، ومعنى ذلك أن الرعي يخضع لقوانين وتنظيمات مضبوطة، وأن المجالات الرعوية كانت موزعة توزيعًا غير عشوائي. وهكذا؛ نجد مثلاً أن ايت ايعزى ينتشرون شرق صاغرو ويتحركون من ألنيف في اتجاه إمداوس امسمير، في حين تنتجع قبائل ايت واحليم شتاءً ما بين تزارين وجبل اومالو نمنصور، أما صيفًا فتتجه نحو زاوية أحنصال. يتحرك الرحل صحبة مواشيهم حسب تقلبات المراعي، إلا أنهم يرتحلون داخل نفس المنطقة حيث تكون القبيلة متوفرة على أربع أو خمس مناطق أساسية للرعي طيلة العام، وهذه الحركة تكون بطيئة للغاية قدرها القبطان نيكلوس (Niclausse) بسرعة تتراوح مابين (٢٠) و(٣٠) كلم في الفصل، وخلال تلك المدة يعيش الرحل تحت خيام مصنوعة من جلود المعز تحديدًا.[٢١]

الحرف والتجارة:

إلى جانب الزراعة والرعي، امتهن قليل من ساكنة ايت عطا بعض الحرف والصناعات اليدوية، حيث كانت فئة من الصناع تستغل المواد الأولية التي توفرها مناجم المنطقة سواء منجم تودغة، أو منجم بولمعادن وغيرها، وكذا توفر المنتوجات الزراعية والرعوية لتحويلها إلى منتجات صناعية تستهلك داخل القبيلة أو تسوق نحو الخارج. ومن بين الحرف السائدة حرفة الحدادة التي كانت توفر للفلاح الكثير من أدواته، كما امتهنت بعض النساء مهنة الغزل وتحويل الصوف إلى ملابس. وعمومًا كان أصحاب هذه الحرف وغيرها من نجارة وخزف مكفوفي العيش لدى الزراع والرعاة، فكان الأجر يؤدى نقدًا أو مقابل جزء من المحصول.

أما التجارة، فقد كانت ضعيفة وكان التجار بسطاء إما من الزراع أو غيرهم الذين يسوقون منتوجات الزراعة والرعي، أو بعض المنتوجات التي تفتقر إليها المنطقة نحو الأسواق الأسبوعية، أو نحو القرى المجاورة. ونظرًا للأهمية التي كانت تحظى بها الأسواق في الجنوب الشرقي المغربي من حيث التنظيمات المخصصة لها ومن حيث الوظائف التي تقوم بها، فقد تكاثر أعدادها وتضخم، كما

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

يؤكد ذلك الدكتور "والتر هاريس" (Walter Harris) الذي لاحظ أن المجال الواحي في المنطقة تميز باحتضانه لأسواق محلية ذات إشعاع كبير. وقد كنت هذه الأسواق القبائل العطاوية من ربط علاقات تجارية مع كل من مراكش، وفاس، وتافيلالت، وفركلة التي كانت تستفيد من السلع العطاوية كالتمر، والحناء، والتين، والجلود، والزرابي، والأواني الفخارية. وفي المقابل، كان العطاوين يحصلون على المواد المصنعة مثل الشموع، والملابس، والسكر، والشاي، والبن، وبعض الأسلحة.[٢٢]

٣/٢- التنظيم السياسي والقضائي لقبائل ايت عطا:

يُعَد العرف "تيعقيدين" الأساس القضائي الذي تعتمد عليه قبائل ايت عطا، حيث كان لكل قبيلة قوانينها الخاصة،[٢٣] تقترب من الشرع تارة، وتبتعد عنه تارة أخرى. فعلى سبيل المثال العقوبة المفروضة على مرتكب جريمة قتل تتباين بشكل واضح من منطقة لأخرى. ويحتفظ بالعرف عادةً بالرواية الشفوية، إذ يجتمع الأعيان ويملون على الفقيه نصًا ويطالبون بتطبيقه.[٢٤]

ينتخب ايت عطا سنويًا "أنحكام" الذي يعتبر الحاكم في النزاعات ويتميز باستقامته وشهرته ومعرفته بتعقيدين القبيلة، وتنعقد محكمته بحضور بعض الأعيان، بيد أنه مهدد بأقسى الغرامات في حالة إذا لم يقم بالمهام المنوطة به بكل دقة وشفافية. ويشير سبيلمان إلى أن هذه الأحكام كانت قابلة للاستئناف أمام المحكمة العليا الموجودة في إيغرم أمازدار، ويتم ذلك بكتابة رسالة إلى جماعة القصر أو يأتي المتظلم بنفسه ويطلب الضيافة من منزل ما فيستدعي مضيفه عددًا من أهل إيغرم نيزدار الذين ينطقون الحكم. غير أن اللافت للانتباه أن هذه المؤسسة ليست لها صبغة دينية بحكم عدم ارتباطها لا بزاوية أو ضريح ولي. ولا يوجد سوى عرف واحد لدى قبائل ايت عطا لا يتم تعديله أبدًا حيث يتعهد شيخ كل قبيلة عند انتخابه بعدم تغييره وأنه سيبقى حيز التنفيذ طيلة مدة ولايته.

وتجدر الإشارة إلى؛ أن المحكمة العليا لايت عطا تتكون من أربعة قضاة من ايت واحليم واثنين من ايت إيعزا، حيث شكلت هاتان القبيلتان، الأقدم في الإتحادية مع ايت اونير والال ومجموعة ايت عيسى.[٢٥] أما على المستوى التنظيم السياسي، تنتخب اتحادية ايت عطا سنويًا أمغارن وفلا من أحد الأخماس وفق نظام العرف، وكان لكل خمس شيخ يعين وفق قواعد القبيلة، غير أن ايت خليفة وايت الفرسي من ايت عيسى مزيين وايت علوان لم تتم دعوتهم قط لتبوأ منصب أمغارن وفلا، كما يشير سبيلمان إلى أن ايت أونير تنازلو عن حقوقهم لايت والال الذين ينفردون في خمسهم بإعطاء أمغارن وفلا للاتحادية عندما يحين دوره، وعلى العكس من ذلك يتناوب ايت خباش وايت أو مناصف فيما بينهم بشكل يكون زعيم الاتحادية منهم مرتين من بين خمسة.[٢٦] تتم عملية الانتخاب في فصل الربيع في إحدى مناطق السكن بعد أن يجتمع الأعيان ومندوبو القبائل لتعيينه تارة بدرعة، وتارة في تازارين وتودغا، وتمثل كل قبيلة عن طريق مندوب لها.

تتعدد وظائف أمغارن وفلا، حيث يقوم بفض النزاع بين مختلف القبائل ويقود المفاوضات مع المجموعات المجاورة للاتحادية، ويضمن الاتصال بين مختلف قبائل ايت عطا، كما يسهر على الدفاع عن الأراضي والمصالح المشتركة. كما كان يقوم بتعيين مزاريك وهم عبارة عن أعوان اتصال بين كل الأفخاذ والقبائل. أما على المستوى المحلي، فقد كان لكل قبيلة تنظيم مشابه للاتحادية، حيث ينتخب كل سنة شيخ للفخدة إضافة إلى الأشياخ، ولم يكن أمغارن وفلا يتقاضى أية ضريبة اللهم تلك المداخيل لشريف تامصلوحت من أولاد مولاي عبد الله بن حساين. ولا يتقاضى إلى متحصل الذعائر "إيزماز" الذي يصرفه في مواجهة المصاريف المشتركة ذات الطابع السياسي.[٢٧]

على غرار قبيلة آيت عطا يتجلى دور العشائر الخمسة المكونة لقبيلة آيت خباش في التناوب على رئاسة القبيلة سنة لكل عشيرة على أساس أن يتم اختيار الشيخ العام "أمغار نوفلا"، أو شيخ البلاد "أمغار نتمازيرت" من بين أفراده شيوخ العشائر الأخرى دون مشاركة الأتباع. ويشترط في الشيخ العام أن يكون محترمًا، وذي سيرة حسنة وخصال حميدة، إضافةً إلى التمتع بالشجاعة والتجربة، فإذا كانت قراراته حاسمة بل ومنفردة فيما يخص العلاقة مع القبائل المجاورة والمخزن؛ فإن بقية القضايا الأخرى تتدارسها الجماعة "لجماعت" التي تضم إضافة إليه ممثلي الأفخاذ "إغسان/ العظام" الذين يختارهم لمساعدته "ادبابن نمور: ذوو الحقوق". وتتحدد مهام الشيخ في تسوية مشاكل القبيلة الداخلية، وهو لسانها في محاورة القبائل عند إبرام وثيقة الأمن والصداقة "تاضا"، وكذلك في إقرار شن الحرب أو عقد السلم. وإجمالاً فهو المسؤول عن السياسة الداخلية والعلاقات الخارجية لقبيلته.[٢٨]

إذا كان عبد الله العروي قد اعترف بأن تاريخ المغرب لا يعدو أن يكون تاريخ قبائل، فإن لهذا الحكم ما يبرره بحمل الثقل الكبير الذي كانت تمثله القبيلة في المغرب. هذه المؤسسة التي هيكلت التطور العام الذي طبع علاقة المغرب بمحكوميه منذ أمد ليس بالقصير. إن المتتبع لهذه العلاقة، يرصد الدور الكبير الذي كانت تقوم به مختلف القبائل المغربية في علاقتها بالمخزن من جهة وبالمجال من جهة ثانية، الأمر الذي وسم هذه القبائل بخصائص متعددة جندت الآلة الامبريالية كل إمكانياتها العلمية والبشرية لسبر أغوارها والتعرف على أهم خصائصها بحكم معرفتها المسبقة بأهميتها ومحوريتها في الحياة الاجتماعية والسياسية للمغاربة.

وقد حاولنا من خلال هذا العرض تقديم نظرة موجزة على أهم التكتلات القبلية الموجودة في سفح الأطلس المغربي، من خلال التعرف على خصائصها الطبيعية والبشرية، وكذا أبرز المحطات التاريخية التي مرت منها، قبل أن نقوم -ولو بشكل مقتضب- بتحليل البنيات السياسية والاقتصادية لقبائل ايت عطا مما مكننا

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

من التعرف على أهم خصائص هذا المجال الذي ساهم بشكل كبير في عرقلة المشروع الاستعماري في البلاد، ويكفي دليلاً على ذلك تلك المعارك الضارية التي خاضها المقاومون هناك، وأخرت عملية الاستيلاء الفرنسي على كافة التراب المغربي إلى حدود ١٩٣٤ ؟

خاتمة

شكلت مؤسسة القبيلة الإطار الذي هيكل التاريخ العام للمجتمع المغربي نظرًا للثقل الكبير الذي كانت تمارسه في مجال نفوذها لدرجة جعلت باحثًا مثل عبد الله العروي يقول بأن تاريخ المغرب لا يعدو أن يكون تاريخ قبائل. أما بالنسبة لاتحادية قبائل ايت عطا - أهم التكتلات الموجودة في سفح الأطلس المغربي- فقد اتسمت بجملة من الخصائص يمكن إجمالها في الآتي:

- وجود قبيلة ايت عطا بمجال جغرافي يتسم بقساوة الظروف المناخية والطبيعية نظرًا لارتفاع درجات الحرارة وندرة التساقطات وسيادة الصحاري، وهو الأمر الذي انعكس بشكل سلبي على الحياة الاقتصادية للقبيلة.
- ارتفاع عدد سكان القبيلة شأنها في ذلك شأن باقي الواحات الجنوبية نتيجة ارتفاع عدد الولادات، هذا فضلاً عن تنوع العناصر المشكلة للمجتمع العطاوي (عرب، أمازيغ، زنوج).
- ضعف السلطة المركزية في المغرب خلال العهد السعدي، وتزايد الضغط الأيبيري على السواحل المغربية، كانت من بين الأسباب التي ساعدت على توحيد قبائل ايت عطا.
- الرغبة في الحصول على الكلأ وتوسيع المجال الترابي نحو الشمال ووسط الأطلس، جعل ايت عطا تدخل في صراعات من أجل البقاء مع القبائل المجاورة لاسيما بني معقل.
- تعدد مكونات المجتمع العطاوي وقساوة الظروف الطبيعية حتمت على السكان الاشتغال بأنشطة اقتصادية تتلاءم والمجال الجغرافي لقبيلتهم لاسيما الرعي والزراعة، في حين شكلت التجارة والحرف أنشطة ثانوية.
- اعتماد القبيلة في تنظيمها السياسي والقضائي على العرف أو ما يسمى بـ "تيعقيدين" الذي يقترب من الشرع تارة ويبتعد منه تارة أخرى. وهي بذلك تشبه في تنظيمها مجموع القبائل المنتشرة على طول الشريط الجنوبي الشرقي وبالمناطق الأطلسية، في حين يختلف تنظيمها في أجزاء منه بالقبائل المتواجدة بالسهول وكذلك بالريف، وتبقى البيئة الجغرافية عاملاً حاسمًا ومهيكلاً لطبية هذا التنظيم.

الهَوامِشُ:

(١) جورج سبيلمان، **ايت عطا الصحراء وتهدئة افلان-درا**، ترجمة محمد بوكبوط، نشر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الترجمة رقم ١٠، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٧، ص١٣.

(٢) حميد تيتاو ومحماد لطيف، **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقبائل ايت عطا من خلال أمثاله**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص١١.

(٣) حسن علوي حافظي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٩٧، ص٣٦ وما بعدها. أيضًا، جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص ١٤ - ١٨.

(٤) جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص١٩ - ٢٠.

(٥) حميد تيتاو ومحماد لطيف، مرجع سابق، ص ١٣.

(٦) يعتبر سبيلمان أن المستقر المرتبط بالأرض بفعل حياة الواحات السهلة، كائنًا ضعيفًا تعوزه الشجاعة والحزم، وثرثارًا وقحًا، ولكنه ماهر وحذق. أما البدوي فهو شجاع وصبور وبسيط ولكنه كسول. راجع سبيلمان، مرجع سابق، ص٢٤.

(٧) سبيلمان، مرجع سابق، ص ٢٤ - ٢٥.

(٨) جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٩) يوجد ضريح دادا عطا في "أمي نتقات نلكتاون"، والمسماة حاليًا بتاكونيت في ضواحي زاكورة.

(١٠) لمزيد من التفاصيل راجع: دافيد مونتغومري هارت: **ايت عطا بالوسط الجنوبي المغربي، عناصر تحليل مقارن مع الباختون الأفريدي بالشمال الغربي الباكستاني**، ترجمة وتقديم، عبد الفتاح الزين، مجلة وجهة نظر، ع١٢-١٣، ٢٠٠١، ص٥٨.

(١١) أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة: مطلع القرن السابع عشر، مطلع القرن العشرون: دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية**، الدار البيضاء: آفاق متوسطية، إيداع ١٩٩٤ ص٩٩.

(12) Larbi Mezzine, *Le Tafilalt, contribution a l'histoire du Maroc au XVII et XVIII siècle*, Pub. De la faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat, série Thèse, 1987, P.277.

(١٣) هارت، مقال مذكور، ص ٥٩.

(14) Mezzinz, Op.cit. P.278.

(١٥) حميد تيتاو، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٤.

(١٦) اختلف الباحثون حول هذا التباين، فدافيد هارت مثلاً، يرجع هذا التعدد إلى العوامل الأمنية والاقتصادية نظرًا للتجاذب والانشطار داخل الاتحادية ايت يافلمان التي تضم شتاتًا اثنيًا كبيرًا، وكذلك خوف ايت مرغاد وايت حديدو من العطاويين الأمر الذي دفعهم إلى تجاوز الاتحاد عن طريق القرابة والدم إلى تكتل أخر. أما روس دان فقد حاول هو الأخر تحديد معايير هذا التعدد مؤكدًا أن هذا المجتمع كان يتشكل من عناصر اجتماعية ظلت تعاني من الاختلافات سواء كانت دينية (مسلم- يهودي)، أو اجتماعية (حر- عبد)، أو حسب سلسلة النسب (شريف- صلحاوي)، أو العمق الجنيالوجي (عربي- أمازيغي) والعمل، البشرة، اللون وغيرها من المحددات. وفي هذا السياق وقف روس عند قبائل ايت عطا وحدد مجالها الجغرافي تحديدًا دقيقًا بموازاة مع تحديد الخريطة البشرية المكونة لهذا المجال، مبرزًا أن العناصر التي يتكون منها مجتمع ايت عطا خمسة وهي: الشرفاء، المرابطون، الحراطين، العبيد، واليهود. راجع: استيتو عبد الله، **التاريخ**

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

السياسي والاجتماعي لقبائل ايت عطا إلى نهاية القرن التاسع عشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠١١، ص ١٢٦- ١٢٧.

(١٧) استيتو، مرجع سابق، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(18) mezzine, op.cit. P.267 – 268.

(١٩) استيتو، مرجع سابق، ص١٢٩.

(٢٠) حميد تيتاو، مرجع سابق، ص ٣٠-٣٤.

(٢١) لمزيد من التفاصيل، راجع: عبد الله استيتو، مرجع سابق، ص٧٥ وما بعدها.

(٢٢) عبد الله استيتو، مرجع سابق، ص ٩٠ - ٩١.

(٢٣) لمزيد من التفاصيل راجع:

Documents du centre des hautes études administratives sur l'Afrique et l'Asie modernes, études sur l'orf dans la région de tafilalt, n555, pp.5 - 12.

(٢٤) جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص٤٥.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٤٦ - ٤٧.

(٢٦) كرواز إبراهيم، **ازرف من خلال واقع قبائل آيت عطا**، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، بحث لنيل الإجازة في الحقوق ١٩٨٤. ص٢٢.

(٢٧) جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٢٨) لمزيد من التفاصيل راجع:

Rapport mensuel d'ensemble du protectorat, situation politique et militaire du maroc occidental, juin 1914, *1er partie, P. 14.*

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449